

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٨ - سُورَةُ الْفَتْحِ

سميت به لدلالاتها على فتح البلاد والحجج والمعجزات والحقائق ، وقد ترتب على كل واحد منها المغفرة وإتمام النعمة والهداية والنصر العزيز . وكل هذه أمور جليلة - أفاده المهايى - .

وآياتها تسع وعشرون ، وهى مدنية . نزلت مرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية سنة ست من الهجرة ، عدّة له بالفتح . قال أنس : لما رجعنا من الحديبية ، وقد حيل بيننا وبين نسكنا ، فنحن بين الحزن والسكابة ، فنزلت . واختاف فى المكان الذى نزلت فيه ، فوقع عند محمد بن سعد (بصَجْنان) وهى بفتح المعجمة وسكون الجيم ونون خفيفة . وعند الحاكم فى - الإكليل - بكراع التميم . وعن أبى معشر (بالجحفة) .

قال الحافظ ابن حجر : والأماكن الثلاثة متقاربة . وروى البخارى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال - وهو فى بعض أسفاره - لعمر : لقد أنزلت على الليلة سورة ، لهى أحب إلى مما طلعت عليه الشمس .

وأخرج أيضاً عن عبد الله بن مغفل قال : قرأ النبى صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة سورة الفتح ، فرجع فيها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا)

« إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا » قال الرازى : فى الفتح وجوه :

أحدها - فتح مكة ، وهو ظاهر .

وثانيها - فتح الروم وغيرها .

وثالثها - المراد من الفتح ، صلاح الحديدية .

ورابعها - فتح الإسلام بالحجة والبرهان ، والسيف والسنان .

وخامسها - المراد منه الحكم ، كقوله (١) (رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ) ،

وقوله (٢) (ثُمَّ يَفْتَحْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ) . انتهى .

ولا يخفى أن الوجوه المذكورة كلها ، مما يصدق عليها الفتح الربانى ، وجميعها مما تحقق

مصادقه . إلا أن سبب نزول الآية ، الذى حفظ الثقات زمنه ، بين المراد من الفتح بياناً

لاخلاف معه ، وهو أنه الوجه الثالث المذكور .

قال الإمام ابن كثير : نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم

من الحديدية ، فى ذى القعدة من سنة ست من الهجرة ، حين صدّه المشركون عن الوصول

إلى المسجد الحرام ، ليقضى عمرته فيه ، وحالوا بينه وبين ذلك ، ثم مالوا إلى المصالحاة والمهادنة ،

وأن يرجع عامه هذا ، ثم يأتى من قابل ، فأجابهم إلى ذلك ، على تسكره من جماعة من

الصحابة ، منهم عمر بن الخطاب ، رضى الله عنهم ، كما سيأتى تفصيله فى موضعه من تفسير

هذه السورة إن شاء الله تعالى . فلما نحر ﷺ هديه حيث أحصرَ ورجع ، أنزل الله عز وجل

(١) [٧ / الأعراف / ١٨٩] . (٢) [٣٤ / سبأ / ٢٦] .

هذه السورة ، فيما كان من أمره وأمرهم ، وجعل ذلك الصالح فتحاً ، باعتبار ما فيه من المصلحة ، وما آل الأمر إليه ، كما روى عن ابن مسعود رضى الله عنه وغيره أنه قال : إنكم تعدون الفتح فتح مكة ، ونحن نعد الفتح صلاح الحديبية . وعن جابر رضى الله عنه قال : ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية . روى البخارى ^(١) عن البراء رضى الله عنه قال : تعدون أنتم الفتح فتح مكة ، وقد كان فتح مكة فتحاً ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان ، يوم الحديبية .

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : نزلت على النبي ﷺ (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) مرجه من الحديبية . قال النبي صلى الله عليه وسلم : لقد أنزلت على آية أحب إلي مما على الأرض ، ثم قرأها عليهم النبي صلى الله عليه وسلم - أخرجاه في الصحيحين ^(٢) من رواية قتادة به .

وروى الإمام أحمد ^(٣) عن مجمع بن جارية الأنصارى رضى الله عنه - وكان أحد القراء الذين قرأوا القرآن - قال : شهدنا الحديبية ، فلما انصرفنا عنها ، إذا الناس ينفرون الأباغر . فقال الناس بعضهم لبعض : ما للناس ؟ قالوا : أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرجنا مع الناس نرجف ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته عند كراع الغميم ، فاجتمع الناس عليه ، فقرأ عليهم (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا) .

قال ، فقال رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى رسول الله ! أو فتح هو ؟ قال صلى الله عليه وسلم : إى والذى نفس محمد بيده ! إنه لفتح . ورواه أبو داود فى الجهاد . ثم قال ابن كثير : فالمراد بقوله تعالى (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا) - أى بينا ظاهراً - هو صلاح الحديبية ، فإنه حصل بسببه خير جليل ، وأمن الناس ، واجتمع بعضهم ببعض ، وتسكلم المؤمن مع الكافر ، وانتشر العلم النافع والإيمان . انتهى .

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٤ - كتاب المغازى ، ٣٥ - باب غزوة الحديبية ، حديث ١٦٨٦

(٢) أخرجه مسلم فى : ٣٢ - كتاب الجهاد ، حديث ٩٧ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٢٠ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

وقال الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) في الكلام على ما في غزوة الحديبية من الفقه واللطائف ، ما مثاله :

كان صلح الحديبية مقدمة وتوطئة بين يدي هذا الفتح العظيم ، أمن الناس به ، وكلم بعضهم بعضاً ، وناظره في الإسلام ، وتمكن من اختفى من المسلمين بمكة من إظهار دينه ، والدعوة إليه ، والمناظرة عليه ، ودخل بسببه بشر كثير في الإسلام . ولهذا سماه الله فتحاً في قوله (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا) نزلت في الحديبية ، فقال عمر : يارسول الله! أو فتح هو؟ قال : نعم . وأعاد سبحانه ذكر كون ذلك فتحاً قريباً . وهذا شأنه سبحانه أن يقدم بين يدي الأمور العظيمة مقدمات تكون كالدخول إليها ، المنبئة لها وعليها ، كما قدم بين يدي قصة المسيح وخلق من غير أب ، قصة زكريا ، وخلق الولد له ، مع كونه كبيراً ، لا يولد لمثله . وكما قدم بين يدي نسخ القبله ، قصة البيت وبناءه وتعظيمه والتنويه به ، وذكر بانيه ، وتعظيمه ومدحه . ووطأ قبل ذلك كله بذكر النسخ وحكمته المقتضية له ، وقدرته الشاملة له . وهكذا ما قدم بين يدي مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من قصة الفيل ، وبشارات الكهان به ، وغير ذلك . وكذلك الرؤيا الصالحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم كانت مقدمة بين يدي الوحي في اليقظة . وكذلك الهجرة ، كانت مقدمة بين يدي الأمر بالجهاد . ومن تأمل أمرار الشرع والقدر ، رأى من ذلك ما تبهر حكمته أولى الأبواب . انتهى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ وَعَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا)

« لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ » قال أبو السعود : غاية للفتح ، من حيث أنه مترتب على سعيه عليه الصلاة والسلام في إعلاء كلمة الله تعالى ، بمكابدة مشاق الحروب ، واقتحام موارد الخطوب .

« مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » أى جميع ما فرط منك ، من ترك الأولى . وتسميته ذنباً ، بالنظر إلى منصبه الجليل .

قال ابن كثير : هذا من خصائصه صلى الله عليه وسلم التي لا يشاركه فيها غيره . وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال كغيره ، غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم يفلها بشر سواه ، لامن الأولين ، ولامن الآخرين . وهو صلى الله عليه وسلم أكمل البشر على الإطلاق ، وسيدهم في الدنيا والآخرة . ولما كان أطوع خلق الله تعالى لله ، وأشدهم تعظيماً لأوامره ونواهيه ، قال حين بركت به الفاقة : حبسها حابس الفيل . ثم قال صلى الله عليه وسلم : والذي نفسى بيده ! لا يسألونى اليوم شيئاً يعظمون به حرمة الله إلا أجبتهم إليها ، فلما أطاع الله في ذلك ، وأجاب إلى الصلح ، قال الله تعالى (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ...) الآيات .

وقوله تعالى « وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ وَعَلَيْكَ » أى بإظهاره إياك على عدوك ، ورفع ذكرك . « وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا » أى ويرشدك طريقاً من الدين لا عوج فيه . قال أبو السعود : أصل الاستقامة ، وإن كانت حاصلة قبل الفتح ، لكن حصل بعد ذلك من اتضاح سبيل الحق ، واستقامة مناهجه ، ما لم يكن حاصلًا قبل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَيَنْصُرُكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا)

« وَيَنْصُرُكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا » أى قوياً منيعاً ، لا يغلبه غالب ، ولا يدفعه دافع ، للبأس الذى يؤيدك الله به ، والظفر الذى يمدك به .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ ، وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا) « هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ » أى السكون والطمأنينة إلى الإيمان والحق . « لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ » أى يقيمنا منضمًا إلى يقيمهم .

قال القاشاني : السكينة نور في القلب يسكن به إلى شاهده ويطمئن . وهو من مبادئ عين اليقين ، بعد علم اليقين ، كأنه وجدان يقينى معه لذة وسرور . « وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى أنصار ينتقم بهم ممن يشاء من أعدائه . « وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا » أى فى تقديره وتدبيره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ، وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا) واللام فى قوله تعالى « لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا » متعلق بمحذوف ، نحو : أمر بالجهاد ليُدخل . . . الخ . أو دبر ما دبر مما ذكر لذلك ، أو متعلق بـ (فَتَحَنَّا) على تعلق الأول به مطلقاً ، وهذا مقيداً ، أو بقوله (لِيَزْدَادُوا) . « وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ » وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ، عَلَيْهِمْ دَارَةُ السَّوْءِ ، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا)

« وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السُّوءِ » أى ظن الأمر السوء ، وهو أن لا ينصر تعالى رسوله والمؤمنين . « عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ » أى بالتمذيب فى الدنيا بأنواع الوقائع ، كالقتل والإهانة والإذلال . وقرئ (دَائِرَةُ السُّوءِ) بالضم ، وهما لغتان من (ساء) كالكُفرة والكفرة . « وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ » أى بالفهر والحجب . « وَلَعَنَهُمْ » أى بالطرد والإبعاد فى الآخرة . « وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)

« وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا » قيل فى سر التكرير : إنه ذكر سابقاً على أن المراد به أنه المدبر لأمر المخلوقات بمقتضى حكمته ، فلذلك ذيله بقوله (عَلِيمًا حَكِيمًا) ، وهما أريد به التهديد بأنهم فى قبضة قدرة المنتقم ، فلذا ذيله بقوله (عَزِيزًا حَكِيمًا) فلا تكرار . وقيل : إن الجنود جنود رحمة ، وجنود عذاب ، وأن المراد هنا الثانى ، ولذا تعرض لوصف العزة . وقال القاشانى : كررها ليفيد تغليب الجنود الأرضية على السماوية فى المنافقين والمشركين ، بعكس ما فعل بالمؤمنين . وبدل (عَلِيمًا) بقوله (عَزِيزًا) ليفيد معنى القهر والقمع ، لأن العلم من باب اللطف ، والعزة من باب القهر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)

« إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا » أى على أمتك بما أجابوك فيما دعوتهم إليه « وَمُبَشِّرًا » أى لمن استجاب لك بالجنة « وَنَذِيرًا » أى لمن خالفك بالفار .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)

« لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ » أى تؤيدوا دينه وتقرّوه « وَتُوَقِّرُوهُ » أى تعظّموه « وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا » أى غدوة وعشيا - على ظاهره - أودائما ، يجعل طرفى النهار كفاية عن الجميع ، كما يقال (شرقا وغربا) لجميع الدنيا . والضمائر كلها - على ما ذكرنا - لله ، وجوز إعادة الأولين للرسول ، والأخير لله إلا أن فيه تفكيكا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ، فَمَنْ

نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ

فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا)

« إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ » أى على قتال قريش تحت الشجرة ، وأن لا يفرّوا عند لقاء العدو ، ولا يولّوهم الأدبار . « إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ » أى لأن عقد الميثاق مع رسول الله ، كعقده مع الله ، من غير تفاوت ، لأن المقصود من توثيق العهد مراعاة أوامره تعالى ونواهييه . « يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ » تأكيد لما قبله . أى أن يد الله عند البيعة فوق أيديهم ، كأنهم يبايعون الله ببيعتهم نبيه ﷺ . وقال القاشانى : أى قدرته البارزة فى يد الرسول ، فوق قدرتهم البارزة فى صور أيديهم ، فيضرمهم عند النكث ، وينفعهم عند الوفاء .

« فَمَنْ نَكَثَ » أى نقض عهده « فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ » أى لعود ضرر ذلك عليه خاصة . « وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا » وهو الجنة .

تنبیه :

هذه البيعة هي بيعة الرضوان . وكانت تحت شجرة سمرة بالحديبية . وكان الصحابة الذين

بايعوا رسول الله ﷺ يومئذ ألفاً وأربعمائة ، وقيل : وثلاثمائة ، وقيل : خمسمائة . والأول أصح - على ما قاله ابن كثير - وقد اقتصر سيرتها غير واحد من الأئمة . ولما كانت هذه السورة الجليلة كلها في شأنها ، لزم إيرادها مفصلة .

قال ابن إسحاق : خرج النبي ﷺ في ذي القعدة معتمراً ، لا يريد حرباً . واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه ، وهو يخشى من قريش أن يعرضوا له بحرب ، أو يصدّوه عن البيت . فأبطأ عليه كثير من الأعراب . وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن معه من المهاجرين والأنصار ، ومن لحق به من العرب ، وساق معه الهدى ، وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربته ، وليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ، ومعظماً له .

وقال الإمام ابن القيّم : قصة الحديبية كانت سنة ست في ذي القعدة . وكان معه ألف وخمسمائة . هكذا في الصحيحين ^(١) عن جابر . وفيهما ^(٢) عن عبد الله بن أبي أوفى : كنا ألفاً وثلاثمائة . وعن جابر فيهما ^(٣) : كانوا ألفاً وأربعمائة - والقلب إلى هذا أميل - وهو قول البراء بن عازب ، ومعمل بن يسار ، وسلمة بن الأكوع . ثم لما كانوا بذى الحليفة قلّد رسول الله صلى الله عليه وسلم الهدى وأشعر وأحرم بالعمرة ، وبمث عمتّ له بين يديه من خزاعة ، يخبره عن قريش ، حتى إذا كان قريباً من عسفان ، أتاه عينه فقال : إنى تركت كعب بن لؤى ، قد جمعوا لك الأحابيش ^(٤) ، وجمعوا لك جموعاً ، وهم مقاتلون ، وصادوك عن البيت . واستشار النبي ﷺ أصحابه وقال : أترون أن نعمل إلى ذراري هؤلاء

(١) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٣٥ - باب غزوة الحديبية ، حديث ١٦٨٥

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٣٥ - باب غزوة الحديبية ، حديث ١٨٩٤

(٣) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٣٥ - باب غزوة الحديبية ، حديث ١٦٨٥

(٤) الأحابيش : أحياء من العرب حالفوا قريشاً ، وتجمعوا معهم .

الذين أعانوهم فنصيبهم ، فإن قعدوا قعدوا موتورين^(١) محزونين ، وإن نجوا يكن عُقُ^(٢) قطعها الله ؟ أم ترون أن نؤم البيت ، فمن صدنا عنه قاتلناه ؟ قال أبو بكر : الله ورسوله أعلم ! إنما جئنا معتمرين ، ولم نجىء لقتال أحد . ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : فروحوا إذن . فراحوا ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن خالد بن الوليد بالغميم^(٣) ، في خيل لقريش ، فخذوا ذات اليمين ، فوالله ! ما شعر بهم خالد حتى إذا هو بعرة الجبش . فانطلق يركض نذيرا لقريش . وسار النبي صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم ، بركت راحلته . فقال الناس : حَلْ حَلْ^(٤) ، فألحَّت^(٥) : فقالوا : خلأت^(٦) القصواء ! خلأت القصواء ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخأق ، ولكن حبسها حابس الفيل ! ثم قال : والذي نفسي بيده ! لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمت الله إلا أعطيتهموها . ثم زجرها فوثبت به ، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية على عمد^(٧) قليل الماء إنما يتبرضه^(٨) الناس نبرضا ، فلم يلبث الناس أن نزحوه ، فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العطش ، فانتزع سهما من كنانته^(٩) ، ثم أمرهم أن يجعلوها فيه . قال ، فوالله ! ما زال يجيش لهم بالرى^(١٠) ، حتى صدروا عنه . وفزعت قريش لنزوله عليهم ، فأحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث إليهم رجلا من أصحابه ، فدعا عمر بن الخطاب ليعثه إليهم ، فقال : يا رسول الله ! ليس لي بمكة أحد من بني كعب يغضب لي إن أوديت ، فأرسل عثمان بن عفان فإن عشيرته بها ، وإنه مبلغ ما أردت . فدعا

(١) الموتور : من قتل له قتيل ، فلم يدرك بدمه . (٢) العُقُ : الجماعة من الناس .

(٣) وادٍ بمرحلتين من مكة . (٤) كلمة زجر لبعث البعير على السير .

(٥) أي لزقت مكانها . (٦) أي حرّنت .

(٧) التمد : بالتجريك الماء القليل . ولعل المراد به هنا محله ، ليحسن وصفه بقلة الماء .

(٨) أي يأخذونه قليلاً قليلاً . (٩) وعاء من جلد يكون فيه النشاب .

(١٠) أي يفور ماؤه ويرتفع .

رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان ، فأرسله إلى قريش وقال : أخبرهم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عماراً ، وادعهم إلى الإسلام . وأمره أن يأتي رجالاً بمكة مؤمنين ونساء مؤمنات ، فيدخل عليهم ، ويبشرهم بالفتح ، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة ، حتى لا يستخفي فيها بالإيمان . فانطلق عثمان ، فر على قريش بيلدح^(١) ، فقالوا : أين تريد ؟ فقال : بعثني رسول الله ﷺ أَدْعُوكم إلى الله وإلى الإسلام ، ونخبركم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عماراً . فقالوا : قد سمعنا ما تقول ، فانفذ لحاجتك . وقام إليه أبان بن سعيد بن العاص ، فرحب به ، وأسرج فرسه . فحمل عثمان على الفرس وأجاره ، وأردفه أبان حتى جاء مكة . وقال المسلمون قبل أن يرجع عثمان : خلص عثمان قبلنا إلى البيت وطاف به . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون ! فقالوا : وما يمنعه يا رسول الله ، وقد خلص قال : ذلك ظني به أن لا يطوف بالكعبة حتى نطوف معاً . واختلط المسلمون بالمشركين في أمر الصالح ، فرمى رجل من أحد الفريقين رجلاً من الآخر ، وكانت معركة ، وتراموا بالنبل والحجارة ، وصاح الفريقان كلاهما ، وارتهن كل واحد من الفريقين بمن فيهم . وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عثمان قد قتل . فدعا إلى البيعة ، فثار المسلمون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو تحت الشجرة ، فبايعوه على أن لا يفروا . فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد نفسه وقال : هذه عن عثمان . ولما تمت البيعة رجع عثمان . فقال له المسلمون : اشتفت يا أبا عبد الله من الطواف بالبيت ؟ فقال : بئس ما ظنتم بي ! والذي نفسى بيده ! لو مكثت بها سنة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مقيم بالحديبية ، ما طفت بها ، حتى يطوف بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولقد دعيتي قريش إلى الطواف بالبيت فأبيت ! فقال المسلمون : رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أعلمنا بالله ، وأحسننا ظناً . وكان عمر أخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم للبيعة تحت الشجرة ، فبايعه المسلمون كلهم ، إلا الحر بن قيس ،

(١) موضع قرب مكة .

وكان معقل بن يسار أخذاً بفصنها يرفعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان أول من بايعه أبو سنان الأسدي ، وبايعه سلمة بن الأكوع ثلاث مرات ، في أول الناس وأوسطهم وآخرهم . فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة ، وكانوا عيبة نصح^(١) رسول الله ﷺ من أهل تهامة فقال : إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزولوا أعداد مياه الحديبية ، معهم العوذ المطافيل^(٢) ، وهم مقاتلوك ، وصادوك عن البيت . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا لم نجىء لقتال أحد . ولكن جننا معتمرين ، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب ، وأضرت بهم : فإن شأؤوا أمادهم ويخولوا بيني وبين الناس . وإن شأؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فملوا ، وإلا فقد جؤوا . وإن أبوا إلا القتال ، فوالذي نفسى بيده ! لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتي ، أو لينفذن الله أمره قال بديل : سأبلغهم ما تقول . فانطلق حتى أتى قريشاً فقال : إني قد جئتكم من عند هذا الرجل ، وسمعته يقول قولاً ، فإن شئتم عرضته عليكم . فقال سفهاؤهم : لا حاجة لنا أن تحدثنا عنه بشيء . وقال ذوو الرأي منهم : هات ما سمعته . قال سمعته يقول كذا وكذا . فقال عروة بن مسعود الثقفي : إن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ، ودعوني آته . فقالوا : آئته . فأتاه ، فجعل يكلمه . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم نحواً من قوله لبديل . فقال له عروة عند ذلك : أي محمد ! أرايت لو استأصلت قومك ، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك ؟ وإن تكن أخرى ، فوالله إني لأرى وجوهاً ، وأرى أوشاباً من الناس ، خليقاً أن يفرؤا ويدعوك ! فقال له أبو بكر : امصص بظر اللات ! أنحن نفر عنه وندعه ! قال : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر . قال : أما والذي نفسى بيده ! لولا يد كانت لك عندى لم أجزرك بها ، لأجبتك ! وجعل يكلم

(١) يعنى : خاصته وموضع نصحه . كنى بها عن القلوب والصدور التي هي مواضع النصح ، تشبهاً لها بالعياب التي يستودع فيها الثياب .

(٢) أي الإبل مع أولادها . والمطفل : الناقة القريبة العهد بالنتاج مع طفلها .

النبي صلى الله عليه وسلم ، وكلما كلفه أخذ بلحيته . والمغيرة بن شعبة على رأس النبي صلى الله عليه وسلم ومعه السيف ، وعليه المغفر . فكأها أهوى عروة إلى لحيمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب يده بفعل السيف وقال : أخر يدك عن لحيمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرفع عروة رأسه وقال : من ذا ؟ قال : المغيرة بن شعبة . فقال : أى عُدر ! أو لست أسعى في غدرتك ؟ وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية . فقتلهم ، وأخذ أموالهم ، ثم جاء فأسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أما الإسلام فأقبل ، وأما المال فلست منه فى شيء .

ثم إن عروة جعل يرمى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فوالله ! ما تنخم النبي صلى الله عليه وسلم نخمته إلا وقعت فى كف رجل منهم ، فذلك بها جلده ووجهه ، وإذا أمرهم ابتدروا إلى أمره ، وإذا توضعوا كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يُحدّون إليه النظر تعظيماً له . فرجع عروة إلى أصحابه فقال : أى قوم ! لقد وفدت على الملوك : على كسرى وقيصر والنجاشي ، والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً . والله ! إن تنخم نخمته إلا وقعت فى كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضعوا كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يُحدّون إليه النظر تعظيماً له . وقد عرض عليكم خطة رشداً فاقبلوها . فقال رجل من بنى كنانة : دعونى آته . فقالوا : ائته . فلما أشرف على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا فلان ، وهو من قوم يعظمون البُدن ، فابعثوها له ، فبعثوها له ، واستقبله القوم يلبّون ، فلما رأى ذلك قال : سبحان الله ! ما ينبغى لهؤلاء أن يُصدوا عن البيت ، فرجع إلى أصحابه فقال : رأيت البُدن قد قُددت وأُشعرت ، وما أرى أن يصدوا عن البيت . فقام مكرز بن حفص ، فقال : دعونى آته . فقالوا : ائته . فلما أشرف عليهم قال النبي صلى الله عليه وسلم : هذا مكرز بن حفص ، وهو رجل فاجر فجعل يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبينما هو يكلمه ، إذ جاء سهيل بن عمرو ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

قد سهل لكم من أمركم ، فقال : هات اكتب بيننا وبينكم كتابا . فدعا الكاتب ، فقال : اكتب :
 بسم الله الرحمن الرحيم . فقال سهيل : أما الرحمن ، فوالله ما ندري ما هو ، ولكن اكتب :
 باسمك اللهم ، كما كنت تكتب . فقال المسلمون : والله لانكتبها إلا باسم الله الرحمن الرحيم .
 فقال النبي ﷺ : اكتب : باسمك اللهم . ثم قال : اكتب : هذا ما قاضى عليه محمد رسول
 الله ، فقال سهيل : فوالله ! لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ،
 ولكن اكتب : محمد بن عبد الله . فقال النبي ﷺ : إني رسول الله وإن كذبتموني !
 اكتب : محمد بن عبد الله . فقال النبي ﷺ : على أن تخلوا بيننا وبين البيت فطوف به
 فقال سهيل : والله ! لا تتحدث العرب أننا أخذنا ضغطة ، ولكن لك من العام المقبل ، فكتب
 فقال سهيل : على أن لا يأتيك منا رجل ، وإن كان على دينك ، إلا رددته إلينا . فقال المسلمون
 سبحان الله ! كيف يرد إلى المشركين ، وقد جاء مسلماً ؟ ! فبيناهم كذلك إذ جاء أبو جندل
 ابن سهيل يرسف في قيوده ، قد خرج من أسفل مكة ، حتى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين .
 فقال سهيل : هذا يا محمد أول من قاضيتك عليه أن ترده ، فقال النبي ﷺ : إنا لم نقض
 الكتاب بعد ، فقال : فوالله ! إذن لا أصلحك على شيء أبداً . فقال النبي ﷺ : فأجره لي
 قال : ما أنا بمجير له ، قال : بلى ، فافعل . قال ما أنا بفاعل . قال مكرز : قد أجزناه لك .
 فقال أبو جندل : يا معشر المسلمين ! أورد إلى المشركين وقد جئت مسلماً ، ألا ترون مالقيت -
 وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله - قال عمر بن الخطاب : والله ! ما شككت منذ أسلمت
 إلا يومئذ ، فأثبت النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله ! ألسنت نبي الله ؟ قال : بلى ! قلت :
 ألسنا على الحق ، وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى ! فقلت : على م نعطي الدنيا في ديننا ، ونرجع
 ولما يحكم الله بيننا وبين أعدائنا ؟ فقال : إني رسول الله ، وهو ناصري ، ولست أعصيه . قلت :
 أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال : بلى ! فأخبرت أنك تأتيه العام ؟
 قلت : لا ! قال : فإنك آتية ، وتطوف به ! قال فأثبت أبا بكر ، فقات له كما قلت لرسول الله
 ﷺ ، ورد عليه أبو بكر كراد عليه رسول الله ﷺ سواء ، وزاد : فاستمسك بفرزه حتى تموت

فوالله ! إنه لعلى الحق . قال عمر : فعمدت لذلك أعمالاً . فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ : قوموا وانحروا ثم احلقوا ، فوالله ! ما قام منهم رجل حتى قال ثلاث مرات ، فلما لم يبق منهم أحد قام فدخل على أم سلمة ، فذكر لها ما لقي من الناس ، فقالت أم سلمة : يا رسول الله ! أتحب ذلك ؟ اخرج ثم لاتكلم أحداً كلمة حتى تنحر بدنك ، وتدعو حالقك فيحلق لك . فقام فخرج فلم يكلم أحداً منهم ، حتى فعل ذلك : نحر بدنه ، ودعا حالقه فحلقه . فلما رأى الناس ذلك قاموا فبحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمًا . ثم جاءت نسوة مؤمنات ، فأنزل الله عز وجل : ^(١) (يَسْأَلُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَهُمُ الْمَوْتُ مَهَجِرَاتٍ) حتى بلغ (بِعَصْمِ الْكُوفِرِ) فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له فى الشرك . فتزوج إحداهما معاوية ، والأخرى صفوان بن أمية .

ثم رجع إلى المدينة ، وفى مرجعه أنزل الله عليه : (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا . . .) الآيات . فقال عمر : أفتح هو يا رسول الله ؟ قال : نعم ! فقال الصحابة : هنيئًا لك يا رسول الله ! قالنا ! فأنزلنا الله عز وجل ^(٢) (هُوَ الَّذِى أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ . . .) الآية . ولما رجع إلى المدينة جاءه أبو بصير - رجل من قريش - مسلماً ، فأرسلوا فى طلبه رجلين ، وقالوا : العهد الذى جعلنا لك ! فدفعه إلى الرجلين ، فخرجا به ، حتى بلغا ذا الحليفة ، فنزلوا يأكلون من تمر لهم ، فقال أبو بصير لأحد الرجلين : والله إنى لأرى سيفك هذا جيداً ، فاستله الآخر ، فقال : أجل ! والله إنه لجيد ، لقد جربت به ثم جربت . فقال أبو بصير أرنى أنظر إليه ، فأمكنه منه ، فضربه حتى برد ، وفرّ الآخر يعدو ، حتى بلغ المدينة ، فدخل المسجد ، فقال رسول الله ﷺ حين رآه : لقد رأى هذا ذعراً . فلما انتهى إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : قُتِل ، والله ! صاحبي ، وإنى لمقتول . وجاء أبو بصير فقال : يانبي الله ! قد أوفى الله ذمتك ، وقد رددتني إليهم ، فأنجاني الله منهم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

(١) [٦٠ / الممتحنة / ١٠] . (٢) [٤٨ / الفتح / ٤] .

وبل أمته ! مسعر حرب لو كان له أحد . فلما سمع ذلك علم أنه سيرده إليهم ، فخرج حتى أتى سيف البحر ، وتفلت منهم أبو جندل بن سهيل ، فلحق بأبي بصير ، فلا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة . فوالله ! لا يسمعون بعير لقريش خرجت إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوه ، وأخذوا أموالهم . وأرسلت قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم تناشده الله والرحم لماً أرسل إليهم ، فنأتاه منهم فهو آمن ، فأنزله الله عز وجل (١) (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ . .) الآية . وجرى الصلح بين المسلمين وأهل مكة على وضع الحرب عشر سنين ، وأن يأمن الناس بعضهم من بعض ، وأن يرجع عنهم علمهم ذلك ، حتى إذا كان العام المقبل ، قدمها ، وخلوا بينها وبين مكة ، فأقام بها ثلاثاً ، وأنه لا يدخلها إلا سلاح الراكب ، والسيوف في القرب ، وأن من أتانا من أصحابكم لم نردّه عليك ، ومن أتاك من أصحابنا رددته علينا ، وأن بيننا وبينك عيبة مكفوفة ، وأنه لا إسلال ولا إغلال . فقالوا : يا رسول الله ! نعطيهم هذا ؟ فقال : من أتاهم منا ، فأبعده الله ، ومن أتانا منهم فرددناه إليهم ، جعل الله له فرجا ومخرجا .

هذا ولينظر تمة ما في فوائد هذه الغزوة ولطائفها في (زاد المعاد) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْنَا ،

يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً

إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً ، بَلَىٰ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبيراً)

« سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْنَا لَنَا »

قال مجاهد : هم أعراب المدينة ، كجهينة ومزينة ، استتبعهم رسول الله ﷺ لخروجه إلى مكة ،

فقالوا : نذهب معه إلى قوم قد جاؤوه ، فقتلوا أصحابه ، فنقاتلهم . فاعتلوا بالشغل . أي سيقولون لك

(١) [٤٨ / الفتح / ٢٤] .

إذا عاتبتمهم على التخلف عنك : شغلنا عن الخروج معك معالجة أموالنا ، وإصلاح معاشنا ، والخوف على أهلنا من الضيعة ، فاستغفر لنا ربنا .

وقوله تعالى : « يَقُولُونَ بِاللَّسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ » تكذيب لهم في اعتذارهم ، وأن الذي خلفهم ليس بما يقولون ، وإنما هو الشك في الله ، والنفاق . وكذا طلبهم للاستغفار أيضاً ، ليس بصادر عن حقيقة ، لأنه بغير توبة منهم . ولا ندم على ماسلف منهم من معصية التخلف . وفيه إيذان بأن اللسان لا عبرة به ، ما لم يكن مترجماً عن الاعتقاد الحق .

« قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا » أى لا أحد يمنعه تعالى من ذلك ، لأنه لا يغالبه غالب . إشارة إلى عدم فائدة استغفاره لهم ، مع بقائهم على كذبهم ونفاقهم ، ولذا هددهم بقوله سبحانه « بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا » أى فيجازيكم عليه .

لطيفة :

قان الناصر : لا تخلو الآية من النض المعروف عند علماء البيان باللف . وكان الأصل - والله أعلم - : فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً ، ومن يحرمكم النفع إن أراد بكم نفعاً . لأن مثل هذه النظم يستعمل في الضر . وكذلك ورد في الكتاب العزيز مطرداً ، كقوله (١) « فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ » (٢) « وَمَنْ يُرِدْ فِتْنَتَهُ وَفَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا » (٣) « فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ » . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في بعض الحديث (٤) : « إني لا أملك لكم شيئاً - يخاطب عشيرته - وأمثاله كثيرة . وسر اختصاصه بدفع المضرة أن الملك مضاف في هذه المواضع باللام ، ودفع المضرة تقع بضاف للمدفع عنه ، وليس كذلك حرمان

(١) [٥ / المائدة / ١٧] . (٢) [٥ / المائدة / ٤١] . (٣) [٤٦ / الأحقاف / ٨]

(٤) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٣٥٠ (طبعنا) .

المنفعة ، فإنه ضرر عائد عليه ، لاله . فإذا ظهر ذلك ، فإنما انتظمت الآية على هذا الوجه ، لأن القسمين يشتركان في أن كل واحد منهما نفي لدفع المقدر من خير وشر ، فلما تقاربا أدرجهما في عبارة واحدة . وخص عبارة دفع الضر ، لأنه هو المتوقع لهؤلاء ، إذ الآية في سياق التهديد ، أو الوعيد الشديد . وهى نظير قوله^(١) (قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً) فَإِنَّ الْعَصْمَةَ إِنَّمَا تَكُونُ مِنَ السُّوءِ لَا مِنَ الرَّحْمَةِ . فهاتان الآيتان يرامان في التقرير الذى ذكرته - والله أعلم - .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوًّا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا)

[١٣] (وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا)

« بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ » أى اعتقدتم أنه لن يرجع « الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا » أى بل تستأصلهم قريش . « وَزَيَّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ » أى حسن الشيطان ذلك وصححه ، حتى حجب لكم التخلف . « وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوًّا » وهو عدم نصر الرسول ، وعدم رجوعهم من سفرهم هذا . « وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا » هالكين ، مستوجبين لسخط الله ، أو فاسدين فى أعمالكم ونياتكم .

« وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا » أى : من النار تستعمر عليهم .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ١٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ،
وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)

« وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » قال ابن جرير (١) : هذا من الله جل ثناؤه حيث لهُؤلاء الأعراب المتخلفين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على التوبة والمراجعة إلى أمر الله ، في طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم . يقول لهم : بادروا بالتوبة من تخلفكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن الله يغفر للتائبين ، لأنه لم يزل ذا عفو عن عقوبة التائبين إليه من ذنوبهم ومماصيهم من عباده ، وذا رحمة بهم أن يعاقبهم على ذنوبهم بعد توبتهم منها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَائِمٍ لِّتَأْخُذُواهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ،
يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ ، قُل لَّن نَتَّبِعُونَكَ كَمَا كَذَّبْنَاكَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ، فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْمُسِدُوتَنَا ، بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا)

« سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ » أى بعذر الاشتغال بأموالهم وأهلهم بعد طلبهم الاستغفار لهم « إِذَا انْطَلَقْتُمْ » أى قصدتم السير « إِلَىٰ مَغَائِمٍ » أى أماكنها . قال ابن جرير (١) : وذلك ما كان وعد الله أهل الحديبية من غنائم خيبر « ذَرُونَا » أى اتركونا في الانطلاق إليها « نَتَّبِعْكُمْ » أى نشهد معكم قتال أهلها « يُرِيدُونَ » أى بعد ظهور كذبهم في الاعتذار ، وطلب الاستغفار « أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ » قال ابن جرير (٢) : أى وعد الله الذى وعد

(١) انظر الصفحة رقم ٧٩ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٨٠ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أهل الحديبية ، وذلك أن الله جعل غنائم خيبر لهم ، ووعدهم ذلك عوضاً من غنائم أهل مكة ، إذ انصرفوا عنها على صلح ، ولم يصيبوا منهم شيئاً .

وقال آخرون : بل عني بقوله (يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ) إرادتهم الخروج مع نبي الله صلى الله عليه وسلم في غزوة . وقد قال الله تبارك وتعالى في سورة التوبة^(١) : (فَاسْتَشْذَبُوا نُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا) والأكثر على الأول . وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم رجع من الحديبية في ذى الحجة من سنة ست ، وأقام بالمدينة بقيتها وأوائل الحرم ، ثم غزا خيبر بمن شهد الحديبية ، ففتحها وغنم أموالاً كثيرة ، فخصها بهم .

قال الشراح : وكان ذلك بوحى . ثم كانت غزوة تبوك بعد فتح خيبر ، وبعد فتح مكة أيضاً . وفي منصرفه من تبوك نزل قوله تعالى^(١) (فَاسْتَشْذَبُوا نُوكَ لِلْخُرُوجِ . . .) الآية . فكيف يحمل على ما كان في غزوة الحديبية ، وقد نزل بعدها بكثير ؟ - والله أعلم . -

« قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا » أى إلى خيبر إذا أردنا السير إليهم . وهو نفي في معنى النهى . قال الشهاب : فالخبر مجاز عن النهى الإنشائي ، وهو أبلغ .

« كَذَلِكَ قَالِ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ » قال ابن جرير^(٢) : أى من قبل مرجعنا إليكم . إن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية معنا ، ولستم ممن شهدها ، فليس لكم أن تتبعونا إلى خيبر ، لأن غنيمتها لغيركم « فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا » أى أن نصيب معكم معناً إن نحن شهدنا معكم ، فلذلك تمنعوننا من الخروج معكم . قال الشهاب : وهو إضراب عن كونه بحكم الله . أى بل إنما ذلك من عند أنفسكم حسداً .

« بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ » أى عن الله تعالى ما لهم وعليهم من أمر الدين « إِلَّا قَلِيلًا »

(١) [٩ / التوبة / ١٣] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٨١ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أى فيها قليلاً، وهو ما كان في أمور الدنيا، كقوله تعالى^(١) (يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا).

القول في تاويل قوله تعالى :

[١٦] (قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ ، فَإِنِ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ، وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

« قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ » أى عن المسير معك « سَتُدْعُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَأْسٍ شَدِيدٍ » أى يفوق قتال من أقاتلهم ، بحيث لا دخل للصلح والأمن فيه ، بل « تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ » أى يدخلون في الدين من غير حرب ولا قتال . وقرئ شاذاً (أو يسلموا) بمعنى إلا أن يسلموا ، أو حتى يسلموا . « فَإِنِ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا » يعنى الغنيمة في الدنيا، والجنة في الآخرة « وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ » أى عن الحديبية « يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » أى لتضاعف جرمكم .

ثم خص من هذا الوعيد أصحاب الأعداء، وإن حدثت بعد التخلف الأول ، بقوله سبحانه :

القول في تاويل قوله تعالى :

[١٧] (لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ ، وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا)

« لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرْجٌ » قال المهامبي : وإن أمكنه القتال بإحساس صوت مشى

(١) [٣٠ / الروم / ٧] .

العدو ، ومشى فرسه ، لكن يصعب عليه حفظ نفسه عنه . « وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ »
 أى وإن أمكنه القتال قاعداً ، لكن لا يمكنه السكر والفر ، ولا يقوى قوة القائم « وَلَا عَلَى
 الْمَرِيضِ حَرَجٌ » أى فإنه وإن أمكنه الإبصار والقيام ، فلا قوة له فى دفع العدو ، فضلاً
 عن الغلبة عليه .

ثم أشار تعالى إلى أن هؤلاء ، وإن فاتهم الجهاد ، لا ينقص ثوابهم إذا أطاعوا الله ورسوله ،
 بقوله سبحانه « وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ
 يَقُولُ » أى عن إطاعتها ، وإن كان أعمى أو أعرج أو مريضاً « يُعَذِّبُهُ عَذَابًا أَلِيمًا » أى
 بالمذلة دنيا ، والنار أخرى .

تنبيه :

اختلف المفسرون فى هؤلاء القوم الذين هم (أولو بأس شديد) - على أقوال :

أحدها - أنهم هوازن .

الثانى - ثقيف ، وكلاهما غزاه النبي صلى الله عليه وسلم .

الثالث - بنو حنيفة الذين تابعوا مسيلة الكذاب ، وغزاهم أبو بكر رضى الله عنه .

الرابع - أهل فارس والروم ، الذين غزاهم عمر رضى الله عنه .

ومثار الخلاف هو عموم ظاهر الآية ، وشمول مضادها لكل الغزوات المذكورة . ولوعدت
 من الأوجه كفار مكة ، لم يبعد ، بل عندى هو الأقرب ، لأن السين للاستقبال القريب ،
 فإن هذه السورة نزلت عدة بفتح مكة ، منصرفه عليه السلام من الحديبية ، وعلى أثرها كانت غزوة
 الفتح الأعظم ، التى لم يتخلف عنها من القبائل الشهيرة أحد ، إذ دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى قتال
 قريش أو يسلموا ، فشكنا ما كان من إسلامهم طوعاً أو كرهاً - والله أعلم . -

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا)

« لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ » يعني بيعة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية ، حين بايعوه على مفاجزة قريش الحرب ، وعلى أن لا يفرّوا ، ولا يولوهم الدبر ، تحت شجرة هناك .

وقد أجمع الرواة في الصحاح على أن الشجرة لم تُعلم بعدُ . ففي الصحيحين^(١) من حديث أبي عوانة عن طارق ، عن سعيد بن المسيّب قال : كان أبي ممن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة . قال : فانطلقنا من قابل حاجين ، فحفي علينا مكانها ، وإن كان بينت لكم ، فأنتم أعلم .

وفيهما أيضا عن سفيان قال : إنهم اختلفوا في موضعها .

وروى ابن جرير^(٢) عن قتادة ، عن سعيد بن المسيّب قال : كان جدى يقال له (حزن) ، وكان ممن بايع تحت الشجرة ، فأثبناها من قابل ، فعميت علينا .

ثم قال ابن جرير^(٣) : وزعموا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مرّ بذلك المكان بعد أن ذهبت الشجرة فقال : أين كانت ؟ فجعل بعضهم يقول : هنا ، وبعضهم يقول : ها هنا ! فلما كثر اختلافهم قال : سيروا ، هذا التكلف ، فذهبت الشجرة ، وكانت سمرة ، إما ذهب بها سيل ، وإما شيء سوى ذلك . انتهى .

(١) أخرجه البخارى في : ٦٤ - كتاب المغازى ، ٣٥ - باب غزوة الحديبية ، حديث ١٨٩٨

(٢) انظر الصفحة رقم ٨٦ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) انظر الصفحة رقم ٨٧ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وقال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : روى ابن سعد بإسناد صحيح عن نافع ؛ أن عمر بلغه أن قومًا يأتون الشجرة ، فيصلون عندها ، فتوعدهم ، ثم أمر بقطعها ، فقطعت ! ولا ينافي ما تقدم ، لاحتمال أن هؤلاء علموا مكانها ، أو توهموها ، فأنخذوها مسجدًا ، ومكانًا مقدسًا ، فقطعها عمر حائلئذ ، صونًا لعقيدتهم من الشرك ، لأن الاجتماع على العبادة حولها يفضي إلى عبادتها ببدن ، كما أفضى نصب الأوثان إلى عبادتها ، وكان أول أمرها لتعظيم مسمياتها ، وإجلال مثال أصحابها .

وقال في (الفتح) أيضًا في شرح حديث ابن عمر ، وقوله : رجعنا من العام المقبل ، فما اجتمع منا اثنان على الشجرة التي بايعنا تحتها . كانت رحمة من الله ، ما مثاله : وقد وافق المسيب بن حزن ، والد سعيد ، ما قاله ابن عمر من خفاء الشجرة . والحكمة في ذلك أن لا يحصل بها افتتان ، لما وقع تحتها من الخير ، فلو بقيت لما أمن تعظيم بعض الجهال لها ، حتى ربما أفضى بهم إلى اعتقاد أن لها قوة نفع أو ضرر ، كما نراه الآن مشاهدًا فيما هو دونها . وإلى ذلك أشار ابن عمر بقوله (كانت رحمة من الله) أي كان خفاؤها عليهم ، بعد ذلك ، رحمة من الله تعالى . انتهى .

وهذه البيعة تسمى بيعة الرضوان ، سميت لهذه الآية ، وتقدمت قصتها مفصلة .
« فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ » أي من الصدق والعزيمة على الوفاء بالعهد « فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ » أي الصبر والطمأنينة والوقار . « وَأَنْزَلْنَا لَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا » قال ابن جرير^(١) : أي وعوضهم في العاجل مما رجوا الظفر به من غنائم أهل مكة ، بقتالهم أهلها ، فتتحًا قريبًا ، وذلك - فيما قيل - فتح خيبر .

(١) انظر الصفحة رقم ٨٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)

« وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا » وهي مغنم خيبر ، وكانت أرضاً ذات عقار وأموال ، فتسبها رسول الله ﷺ على أهل بيعة الرضوان خاصة . « وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا » أى ذا عزة فى انتقامه من أعدائه ، وحكمة فى تدبير خلقه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هُدُوءَهُ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا)

« وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا » يعنى ما بقى عليهم من غنائم الكفار فى سبيل الجهاد . « فَعَجَّلَ لَكُمْ هُدُوءَهُ » يعنى غنائم خيبر . وأما الغنائم المؤخرة فسائر فتوح المسلمين بعد ذلك الوقت ، إلى قيام الساعة . وقيل : المعجلة هى صلح الحديبية . والصواب هو الأول ، كما قاله ابن جرير ، لأن المسلمين لم يغنموا بعد الحديبية غنيمة ، ولم يفتحوا فتحاً أقرب من بيعتهم رسول الله ﷺ بالحديبية إليها ، من فتح خيبر وغنائمها . « وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ » أى أيدى أهل خيبر ، فانتصرت عليهم ، أو أيدى المشركين من قريش عنكم فى الحديبية . واختار ابن جرير الأول . قال : لأن الثانى سيدكر فى قوله تعالى (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ . . .) الآية . أى والتأسيس خير من التأكيد . ولك أن تقول : لا مانع من التأكيد ، لاسياً فى مقام التذكير بالنعمة ، والتنويه بشأنها . وتكون الآية الثانية بمثابة التفسير للأولى ، والتبيين لمطلقها - والله أعلم - .

« وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ » أى ولتكون تلك الكفة أو الغنيمة عبرة للمؤمنين ،

يعرفون بها أنهم من الله تعالى بمكان ، وأنه ضامن نصرهم ، والفتح لهم . « وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا » أى ويزيدكم بصيرة و يقيناً وثقة بفضل الله . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

قَدِيرًا)

«وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا» معطوف على (هَذِهِ) أى فمجتل لكم هذه المغنم ، ومغانم أخرى ، وهى مغنم هوازن فى غزوة حنين ، لأنه قال (لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا) وهذا يدل على تقدم محاولة لها . وقال الحسن : هى فارس والروم . قال القرطبي : وكونها معجزة ، وإن كانت لم تحصل إلا فى عهد عمر ، بالنسبة لما بعدها من الغنائم الإسلامية .

وعن قتادة : هى مكة . قال ابن جرير^(١) : وهذا القول الذى قاله قتادة ، أشبه بما دل عليه ظاهر التنزيل . وذلك أن الله أخبر هؤلاء الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة أنه محيط بقرية لم يقدروا عليها . ومعقول أنه لا يقال لقوم ، لم يقدروا على هذه المدينة ، إلا أن يكونوا قد راموها فتمعدرت عليهم . فأما وهم لم يروموا فتمعدرت عليهم ، فلا يقال إنهم لم يقدروا عليها . فإذا كان ذلك كذلك ، وكان معلوماً أن رسول الله ﷺ لم يقصد قبل نزول هذه الآية عليه ، خيبر لحرب ، ولا وجه إليها لقتال أهلها جيشاً ولا سرية ، علم أن المعنى بقوله (وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا) غيرها ، وأنها هى التى عاجلها ورامها فتمعدرت ، فكانت مكة وأهلها كذلك . وأخبر الله تعالى نبيه والمؤمنين ، أنه أحاط بها وبأهلها . وأنه فاتحها عليهم . انتهى .

وقال القرطبي : معنى (قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا) أى أعدها لكم ، فهى كالشيء الذى أحيط به من جميع جوانبه ، فهو محصور لا يفوت . فأنتم ، وإن لم تقدرُوا عليها فى الحال ، فهى محبوسة

(١) انظر الصفحة رقم ٩٢ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

عليكم لا تفوتكم . وقيل : (أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا) علم أنها ستكون لكم ، كما قال (وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) . وقيل : حفظها الله عليكم ، ليكون فتحها لكم . انتهى .
وقد جوز في (أُخْرَى) أن تكون معطوفة على (مَعَانِمَ) المنصوب بـ (وَعَدَّكُمْ)
وأن تكون مرفوعة بالابتداء و (لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهَا) صفتها و (قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا) خبر .
وأوجه آخر .

« وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا » أي : لا يبعد عليه إذا شاء .

ثم أشار تعالى إلى تبشير أهل بيعة الرضوان بالظفر والنصر المستمر ، لصدق إيمانهم ،
وإخلاصهم في ثباتهم ، وإيثارهم مرضاة الله ورسوله على كل محبوب ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلُوا الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يُجِدُونَ وِلِيًّا
وَلَا نَصِيرًا)

[٢٣] (سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا)

« وَلَوْ قَاتَلَكُمُ » أي بعد هذا الفتح والنصر المعجل « الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلُوا
الْأَدْبَرَ » أي ولوكم أمجازهم في الحرب ، فعل المنهزم من قرنه في الحرب . « ثُمَّ لَا يُجِدُونَ
وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا » أي من يوالهم على حربكم ، وينصرهم عليكم .

« سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ » أي مضت في كفار الأمم السالفة مع مؤمنها .
« وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا » أي تغييراً .

قال ابن جرير^(١) : بل ذلك دائم . للإحسان جزاؤه من الإحسان ، وللإساءة والكفر
العقاب والنكال .

(١) انظر الصفحة رقم ٩٣ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا)

« وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ » أى قضى بينهم وبينكم المكافاة والمجازة ، بعد ما خولكم الظفر عليهم والغلبة . إشارة إلى منة الصلح ونعمته في الحديبية ، وأن ذلك عناية منه تعالى بما حفظ من أنفسهم وأموالهم ، ولطف بهم يومئذ لما ادخر لهم بعده . وقد ذهب بعضهم إلى أنه عنى بهذا الكف ، ما كان يوم الفتح . ونظر فيه بأن السورة نزلت قبله .

وقال ابن إسحاق : حدثني من لا أتهم عن عكرمة مولى ابن عباس ؛ أن قريشاً كانوا بعثوا أربعين رجلاً منهم أو خمسين ، وأمروهم أن يطوفوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبيوا من أصحابه أخذاً ، فأخذوا أخذاً . فأتى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمعا عنهم ، وخلي سبيلهم . وقد كانوا رموا في عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجارة والنبل . قال ابن إسحاق : ففي ذلك قال (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ...) الآية .

وروى ابن جرير^(١) عن مجاهد قال : أقبل معتمراً نبي الله صلى الله عليه وسلم . فأخذ أصحابه ناساً من أهل الحرم غافلين ، فأرسلهم النبي صلى الله عليه وسلم . فذلك الإظفار ببطن مكة .

قال قتادة : بطن مكة ، الحديبية .

« وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا » أى فيجازيكم عليه .

(١) انظر الصفحة رقم ٩٤ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدَىٰ مَعَكُوفًا
 أَن يَبْلُغَ مَحَلَّهُو ، وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ
 أَن تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَّعَرَّةٌ بَٰعِيْرٌ عِلْمٍ ، لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ
 مَنْ يَشَاءُ ، لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

« هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى هؤلاء المشركون من قريش ، هم الذين جحدوا توحيد الله
 « وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدَىٰ » أى وصدوا الهدى أيضاً ، وهو ما يهدى إلى
 مكة من النعم « مَعَكُوفًا » أى محبوساً . قال السمين : يقال : عكفت الرجل عن حاجته ، إذا
 حبسته عنها . وأنكر الفارسي تعدية (عكف) بنفسه ، وأثبتها ابن سيده والأزهري وغيرهما ،
 وهو ظاهر القرآن ، لبناء اسم المفعول منه . انتهى .

وقوله تعالى « أَن يَبْلُغَ مَحَلَّهُو » قال ابن جرير^(١) : أى محل نحره . وذلك دخول
 الحرم ، والموضع الذى إذا صار إليه حلّ نحره ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ساق معه
 حين خرج إلى مكة فى سفرته تلك ، سبعين بدنة .

وفى الآية دليل على أن محل ذبح الهدى ، الحرم .

« وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ » أى موجودون بمكة مع الكفار « لَمْ
 تَعْلَمُوهُمْ » أى بصفة الإيمان وهم بمكة ، حبسهم المشركون بها عنكم ، فلا يستطيعون من
 أجل ذلك الخروج إليكم . « أَن تَطَّوَّهُمْ » أى تقبلوهم مع الكفار ، لو أذن لكم فى الفتح
 بدل الصلح . قال السمين : (أَن تَطَّوَّهُمْ) يجوز أن يكون بدلاً من (رِجَالٌ وَنِسَاءٌ) غلب
 الذكور ، وأن يكون بدلاً من مفعول (تَعْلَمُوهُمْ) . فالتقدير على الأول (ولولا وطء

(١) انظر الصفحة رقم ٩٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

رجال ونساء غير معلومين) . وتقدير الثاني (لم تعلموا وطأهم) والخبر محذوف تقديره (ولولا رجال ونساء موجودون ، أو بالحضرة) . انتهى .

« فَتُصِيبُكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةٌ » أى إثم وغرامة . من (عرّه) إذا عراه ما يكرهه . وقوله « بغير علم » حال من الضمير المرفوع فى (تَطَّوَّهُمْ) أى تطؤوهم غير عالين بهم . وفى جواب (لَوْلَا) أقوال :

أحدها - أنه محذوف لدلالة الكلام عليه . والمعنى ولولا كراهة أن تهلكوا ناساً مؤمنين بين ظهرائى المشركين ، وأنتم غير عارفين بهم ، فيصيبكم بإهلاكم مكرهه ومشقة ، لما كف أيديكم عنهم ، ولأذن لكم فى دخول مكة مقاتليهم .

والثانى - أنه مذکور ، وهو (لَعَدَبْنَا) وجواب (لو) هو المحذوف . فحذف من الأول لدلالة الثانى ، ومن الثانى لدلالة الأول .

والثالث - أن قوله (لَعَدَبْنَا) جوابها معاً ، وهو بعيد إن أريد حقيقة ذلك .

وذكر الزمخشري قريباً من هذا فإنه قال : ويجوز أن يكون (لَوْ تَزَيَّلُوا) كالتسكير لـ (لَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ) لرجعهما لمعنى واحد ، ويكون (لَعَدَبْنَا) هو الجواب . ومنع الشيخ رجوعهما لمعنى واحد ، قال : لأن ما تعلق به الأول غير ما تعلق به الثانى - أفاده السمين - .

وأجاب الناصر بقوله : وإنما كان مرجعهما ههنا واحداً ، وإن كانت (لولا) تدل على امتناع لوجود ، و (لو) تدل على امتناع لامتناع . وبين هذين تناف ظاهر ، لأن (لولا) ههنا دخلت على وجود ، و (لو) دخلت على قوله (تَزَيَّلُوا) وهو راجع إلى عدم وجودهم . وامتناع عدم الوجود وجود . فآلا إلى أمر واحد من هذا الوجه . قال : وكان جدى رحمه الله يختار هذا الوجه الثانى ، ويسميه تطرية . وأكثر ما تكون إذا تناول الكلام ، وبعد عهد أوله ، واحتيج إلى رد الآخر على الأول ، فرة يطرى بلفظه ، ومرة بلفظ آخر يؤدى مؤداه ، وقد تقدمت لها أمثال .

تنبيه :

فسر ابن إسحاق (المعرة) بالدية ، ذهاباً إلى أن دار الحرب لا تمنع من ذلك . وهو مذهب الشافعي . وذهب غيرها إلى أنها تمنع من ذلك ، ومنهم ابن جرير ^(١) حيث قال : (المعرة) هي كفارة قتل الخطأ ، وذلك عتق رقبة مؤمنة لمن أطاق ذلك ، ومن لم يطق فصيام شهرين . قال : وإنما اخترت هذا القول ، دون القول الذين قاله ابن إسحاق ، لأن الله إنما أوجب على قاتل المؤمن في دار الحرب - إذا لم يكن هاجر منها ، ولم يكن قاتله علم إيمانه - الكفارة دون الدية فقال (فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوِّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَجْرِيرٌ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً) لم يوجب على قاتله خطأ ديته ، فلذلك قلنا : عنى بالمعرة في هذا الموضع الكفارة . انتهى .

« لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ » متعلق بما يدل عليه الجواب المحذوف ، كأنه قيل عقبيه : لكن كفها عنهم ، ولم يأذن لكم في مقاتلتهم ، ليدخلكم في رحمته الكاملة ، بحفظكم من المعرة . وقد جوز أن يكون (مَن يَشَاءُ) عبارة عن رغب في الإسلام من المشركين ، وعليه اقتصر ابن جرير ^(١) ، قال : أى ليدخل الله في الإسلام من أهل مكة من يشاء ، قبل أن تدخلوها . وناقش فيه أبو السعود بأن ما بعده من فرض التزليل وترتيب التعذيب عليه ، ياباه .

« لَوْ تَزَيَّلُوا » أى لوتعمز مشركو مكة من الرجال المؤمنين ، والنساء المؤمنات ، الذين لم تعلموهم منهم « لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » أى بالقتل أو الأسر أو نوع آخر من العذاب الآجل .

تنبيه :

قال إلكيا الهراسي : في الآية دليل على أنه لا يجوز حرق سفينة الكفار ، إذا كان فيها أسرى من المسلمين ، وكذلك رمى الحصون إذا كانوا بها ، والكفار إذا ترسوا بهم .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٢ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية)

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا)

« إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ » قال ابن جرير^(١) : وذلك حين جعل سهيل بن عمرو في قلبه الحمية ، فامتنع أن يكتب في كتاب المقاضاة الذي كتب بين رسول الله ﷺ والمشركون (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) ، وأن يكتب فيه (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ) وامتنع هو وقومه من دخول رسول الله ﷺ عامه ذلك . والعامل في الظرف إما (لعذبتنا) أو (صدوكم) أو (اذكر) مقدرًا ، فيكون مفعولًا به . و (الحمية) الأتفة ، وهي الاستكبار والاستنكاف ، مصدر من (حمى من كذا) حمية .

وقوله تعالى « فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ » عطف على منوى . أى : فهمَّ المسلمون أن يأبوا ذلك ، ويقاوتوا عليه ، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين .
يعنى : الوقار والثبوت ، حتى صالحوهم على أن يعودوا من قابل ، وعلى ما تقدم .

« وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى » أى اختارها لهم ، فالإلزام مجاز عما ذكر من اختيارها

لهم ، وأمرهم بها .

« وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا » قال أبو السعود : أى متصفين بمزيد استحقاق لها . على أن

صيغة التفضيل للزيادة مطلقا . وقيل : أحق بها من الكفار . « وَأَهْلَهَا » أى المستأهل لها .

« وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا » . قال أبو السعود : أى فيعلم حق كل شيء ، فيسوقه

إلى مستحقه .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٣ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ، لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ
 إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ،
 فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا)

« لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ
 ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ » .

قال ابن جرير^(١) : أى لقد صدق الله رسوله محمداً رؤياه التي أراها إياه أنه يدخل هو
 وأصحابه بيت الله الحرام آمنين ، لا يخافون أهل الشرك ، مقصرًا بعضهم رأسه ، ومحلقًا بغيرهم .
 ثم روى عن مجاهد أنه قال : أرى بالحديبية أنه يدخل مكة وأصحابه محلقين ، فقال أصحابه
 حين نحر بالحديبية : أين رؤيا محمد صلى الله عليه وسلم ؟

وعن ابن زيد قال : قال لهم النبي ﷺ : إني قد رأيت أنكم ستدخلون المسجد الحرام
 محلقين رؤوسكم مقصرين ، فلما نزل بالحديبية ، ولم يدخل ذلك العام ، طعن المنافقون في ذلك
 فقالوا : أين رؤياه؟ فقال الله (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ ...) الآية ، إني لم أره يدخلها هذا
 العام ، وليسكون ذلك . و (الرُّؤْيَا) منصوب بنزع الخافض ، أى صدقه في رؤياه . أى حقق
 صدقها عنده ، كما هو عادة الأنبياء عليهم السلام ، ولم يجعلها أضغاث أحلام . أو منصوب
 على أنه مفعول ثان ، وهو ما قاله الكرماني ، وعبارته : (كذب) يتعدى إلى مفعولين ،
 يقال : كذبتى الحديث ، وكذا (صدق) كما في الآية . وهو غريب لتعدى الثقل لواحد ،
 والخفف لمفعولين .

وقوله (بِالْحَقِّ) حال من الرؤيا . أى متلبسة بالحق ، ليست من قبيل أضغاث الأحلام .
 وقوله (لَتَدْخُلَنَّ) جواب قسم محذوف . أى : والله ! لتدخلن .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٧ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وقوله (إِنْ شَاءَ اللَّهُ) تعليق للعدة بالمشيئة ، لتعليم العباد . أو للإشعار بأن بعضهم لا يدخل ، فهو في معنى : ليدخلته من شاء الله دخوله منكم . أو حكاية لما قاله ملك الرؤيا ، أو النبي ﷺ لأصحابه .

وقوله (مُحَلِّقِينَ) حال مقدره ، لأن الدخول في حال الإحرام ، لا في حال الحلق والتقصير . وفي الكلام تقدير ، أو هو من نسبة ما للجزء إلى الكل . والمعنى : محلقاً بعضكم ، ومقصراً آخرون . والقرينة عليه : أنه لا يجتمع الحلق والتقصير ، فلا بد من نسبة كل منهما لبعض منهم .

وثبت في الصحيح^(١) أن رسول الله ﷺ قال : رحم الله المحلقين ! قالوا : والمقصرين يارسول الله ؟ قال : رحم الله المحلقين ! قالوا : والمقصرين يارسول الله ؟ قال : رحم الله المحلقين ! قالوا : والمقصرين يارسول الله ! قال : والمقصرين !

وقوله تعالى (لَا تَخَافُونَ) حال مؤكدة لقوله (ءَامِنِينَ) أو مؤسسة ، لأن اسم الفاعل للحال والمضارع للاستقبال ، فيكون أثبت لهم الأمن حال الدخول . ونق عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد ، لا يخافون من أحد .

قال الحافظ ابن كثير : وهذا كان في عمرة القضاء ، في ذى القعدة سنة سبع ، فإن النبي ﷺ لما رجع من الحديبية في ذى القعدة ، رجع إلى المدينة ، فأقام بها ذا الحجة والمحرم ، وخرج في صفر إلى خيبر ، ففتحها الله عليه . بعضها عنوة ، وبعضها صلحاً ، وهي إقليم عظيم ، كثير الفخيل والزروع ، فاستخدم من فيها من اليهود عليها ، على الشطر ، وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم ، ولم يشهدوا أحد غيرهم ، إلا الذين قدموا من الحبشة : جعفر بن أبي طالب وأصحابه ، وأبو موسى الأشعري وأصحابه رضی الله عنهم ، ولم يغيب منهم أحد . قال ابن زيد : إلا أبا دجاجة سماك بن خريشة ، كما هو مقرر في موضعه . ثم رجع المدينة ،

(١) أخرجه مسلم في : ١٥ كتاب الحج ، حديث رقم ٣١٨ (طبعنا) .

فلما كان في ذى القعدة من سنة سبع ، خرج ﷺ إلى مكة معتمراً ، هو وأهل الحديبية ، فأحرم من ذى الحليفة ، وساق معه الهدى . قيل : كان ستين بدنة . فلبى ، وسار وأصحابه يلبون ، قريباً من مرّ الظهران ، بعث محمد بن سلمة بالخيول والسلاح أمامه ، فلما رآه المشركون رعبوا رعباً شديداً ، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم ، وأنه قد نكث العهد الذى بينهم وبينه ، من وضع القتال عشر سنين ، فذهبوا فأخبروا أهل مكة . فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمر الظهران ، حيث ينظر إلى أنصاب الحرم ، بعث السلاح من القسي والنبل والرمح إلى بطن يأجج ، وسار بالسيوف إلى مكة مغمدة في قربها ، كما شارطهم عليه . فلما كان في أثناء الطريق ، بعثت قريش مكرز بن حفص فقال : يا محمد ! ما عرفناك تنقض العهد ! فقال ﷺ : وما ذاك ؟ قال : دخلت علينا بالسلاح ، القسي والرمح ! فقال ﷺ : لم يكن ذلك وقد بعثنا به إلى يأجج ؟ فقال : بهذا عرفناك ، بالبرّ والوفاء . وخرجت رؤوس الكفار من مكة ، لثلاث ينظروا إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه رضى الله عنه ، غيظاً وحنقاً . وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا في الطرق وعلى البيوت ، ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه ، فدخلها عليه الصلاة والسلام ، وبين يديه أصحابه يلبون ، والهدى قد يعتمه إلى ذى طوى ، وهو راكب ناقته القصواء ، التى كان راكبها يوم الحديبية ، وعبد الله ابن رواحة الأنصارى أخذ بزمام ناقه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يقول :

باسم الذى لا دين إلا دينه	باسم الذى محمد رسوله
خلوا بنى الكفار عن سبيله	اليوم نضربكم على تأويله
كما ضربناكم على تنزيله	ضرباً يُزيل الهام عن مقيله
ويذهل الخليل عن خليله	قد أنزل الرحمن في تنزيله
في صحف تُتلى على رسوله	بأب خير القتل في سبيله

يا رب ! إني مؤمن بـمقيله

وروى الإمام أحمد^(١) من طريق أبي الطفيل عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما نزل من الظهران في عمرته ، بلغ أصحاب رسول الله ﷺ أن قريشاً تقول: ما يتباعثون من العجف! فقال أصحابه: لو انتحرننا ، من ظهرنا ، فأكلنا من لحمه ، وحسونا من مرقه ، أصبحنا غداً حين ندخل على القوم ، وبنا جماًمةً . قال صلى الله عليه وسلم : لاتفعلوا ، ولكن اجمعولى من أزوادكم ، فجمعوا له ، وبسطوا الأنطاع ، فأكلوا حتى تولوا ، وحشاكل واحد منهم في جرابه . ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل المسجد ، وقعدت قريش نحو الحجر فاضطبع صلى الله عليه وسلم بردائه ، ثم قال : لا يرى القوم فيكم غمزة ، فاستلم الركن ، ثم دخل حتى إذا تغيّب بالركن اليماني مشى إلى الركن الأسود ، فقالت قريش : ما يرضون بالمشى إنهم كَيْتَفَزُونَ نَفَرَ الظباء ! ففعل ذلك ثلاثة أطواف ، فكانت سنة .

قال أبو الطفيل : فأخبرني ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ذلك في حجة الوداع .

وروى أحمد^(٢) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة ، وقد وهنتهم حُمى يثرب ، ولقوا منها سوءاً ، فقال المشركون : إنه يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب ، ولقوا منها شراً ، وجلس المشركون من الناحية التي تلى الحجر ، فأطلع الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم على ما قالوا ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرملوا الأشواط الثلاثة ، ليرى المشركون جلدَهُمْ . قال ، فرملوا ثلاثة أشواط ، وأمرهم أن يشوا بين الركنين ، حيث لا يرام المشركون . وفي رواية : ولم يمنع النبي صلى الله عليه وسلم أن يأمروهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٣٠٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٢٧٨٣ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٣٩٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٢٦٨٦ (طبعة المعارف) .

وفى ابن كثير زيادة من الأحاديث فى هذا الباب ، فليراجعها من أحب الزيادة .
وقوله تعالى « فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا » أى من الخير والمصلحة فى صرفكم عن مكة ،
ودخولكم إليها ، عامسكم ذلك .

قال ابن جرير ^(١) : وذلك علمه تعالى ذكره بما بمكة من الرجال والنساء المؤمنين لم
يعلمهم المؤمنون ، ولو دخلوها فى ذلك العام لوطنوهم بالخيال والرجل ، فأصابتهم منهم معرفة
بغير علم ، فردهم الله عن مكة من أجل ذلك . وليدخل فى رحمته من يشاء ممن يريد أن يهديه .
« فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ » أى قبل دخولكم الذى وعدتم به فى رؤيا النبي صلى الله
عليه وسلم « فَتَحًا قَرِيبًا » يعنى الصلح الذى جرى بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين
مشركى قريش ، أو فتح خيبر ، لتستروح إليه قلوب المؤمنين ، إلى أن يتيسر الفتح الموعود .
وإلى الأول ، ذهب الزهرى ، قال : يعنى صلح الحديبية . وما فتح فى الإسلام فتح كان أعظم
منه ، إنما كان القتال حيث التقى الناس . فلما كانت المدينة ، وضعت الحرب وأمن الناس
كلهم بعضهم بعضاً ، فالتقوا ، فتفاوضوا فى الحديث والمنازعة ، فلم يكلم أحد بالإسلام ، يعقل
شيئاً ، لإدخال فيه . فلقد دخل فى تينك السننتين فى الإسلام مثل من كان فى الإسلام قبل
ذلك وأكثر . ووافقه مجاهد وإلى الثانى ذهب ابن زيد .

قال ابن جرير : والصواب أن يعم فيقال : جعل الله من دون ذلك كليهما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ
كُلِّهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا)

« هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ » أى البيان الواضح « وَدِينِ الْحَقِّ »

أى الإسلام .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٧ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وقال المهامبيّ: (بِأُهْدَى) أى الدلائل القطعية (وَدِينِ الْحَقِّ) أى الاعتقادات الصائبة المطابقة لما هو الواقع أشد مطابقة .

وقال ابن كثير : أى بالعلم النافع ، والعمل الصالح ، فإن الشريعة تشتمل على شيئين : علم وعمل . فالعلم الشرعى صحيح ، والعمل الشرعى مقبول ، فأخباراتها حق ، وإنشاءاتها عدل . « لِيُظْهِرَهُ » أى ليعلمه « عَلَى الدِّينِ كُدِّهِ » قال ابن جرير^(١) : أى ليبيطل به الملل كلها ، حتى لا يكون دين سواه . وذلك حين ينزل عيسى ابن مريم ، فيقتل الدجال ، فينثذ تبطل الأديان كلها ، غير دين الله الذى بعث به محمداً صلى الله عليه وسلم ، ويظهر الإسلام على الأديان كلها . انتهى .

وقال ابن تيمية : قد أظهره الله علماً وحجةً وبياناً على كل دين ، كما أظهره قوةً ونصراً وتأييداً ، وقد امتلأت الأرض منه ومن أمته فى مشارق الأرض ومغاربها ، وسلطانهم دائم لا يقدر أحد أن يزيله ، كما زال ملك اليهود ، وزال ملك من بعدهم عن خيار الأرض وأوسطها . انتهى .

« وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا » أى على أن ما وعده من إظهار دينه على جميع الأديان أو الفتح أو المغانم كائن . قال الحسن : شهد لك على نفسه أنه سيظهر دينك على الدين كله .

قال ابن جرير^(١) : وهذا إعلام من الله تعالى نبيه ﷺ ، والذين كرهوا الصلح يوم الحديبية من أصحابه ؛ أن الله فاتح عليهم مكة وغيرها من البلدان ، مسلمهم بذلك عما نالهم من الكآبة والحزن ، بانصرافهم عن مكة قبل دخولها ، وقبل طوافهم بالبيت .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٩ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (ثُمَّدَّ رَسُولُ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجِدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاءُ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ، ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ، وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا)

« ثُمَّدَّ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ » أى أصحابه « أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ » أى لهم شدة وغلظة على الكفار المحاربين لهم ، الصادقين عن سبيل الله ، وعندهم تَرَاحُمٌ فيما بينهم ، كقوله تعالى (١) (أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكُفْرِينَ) .

لطائف

الأولى - جوز في (ثُمَّدَّ رَسُولُ اللَّهِ) أن يكونا مبتدأ وخبراً ، وأن يكون (رَسُولُ اللَّهِ) صفة ، أو عطف بيان ، أو بدلاً ، (وَالَّذِينَ مَعَهُ) عطف عليه . وخبرها (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ) .

الثانية - قال الشهاب : قوله تعالى (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) تكميل ، لو لم يذكر لربما توهم أنهم لاعتبادهم الشدة على الكفار قد صار ذلك لهم سجية في كل حال ، وعلى كل أحد . فلما قيل (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) اندفع ذلك التوهم ، فهو تكميل واحتراس ، كما في الآية المتقدمة ، فإنه لما قيل (أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) ربما توهم أن مفهوم القيد غير معتبر ، وأنهم موصوفون

(١) [٥ / المائة / ٥٤] .

بالذل دائماً ، وعند كل أحد ، فدفع بقوله (أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ) فهو كقوله :

حليمٌ إذا ما الحلمُ زَيْنَ أهلهُ على أنه عند العدو مهيبٌ

الثالثة - قال المهايغي : تفيد الآية أن دين الحق قد ظهر في أصحابه صلوات الله عليه ،

إذ اعتدلت قوتهم الغضبية ! بتبعية اعتدال المفكرة والشهوية ، إذ هم أشداء على الكفار ،

لرسوخهم في صحة الاعتقاد ، بحيث يغارون على من لم يصح اعتقاده ، رحما بينهم ، لعدم

ميلهم إلى الشهوات . هذا باعتبار الأخلاق ، وأما باعتبار الأعمال ، فأنت « تَرَاهُمْ رُكَمَاءَ

سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا » قال ابن كثير : وصفهم بكثرة العمل ، وكثرة

الصلاة ، وهي خير الأعمال . ووصفهم بالإخلاص فيها لله عز وجل ، والاحتساب عند الله

تعالى جزيل الثواب ، وهو الجنة المشتملة على فضل الله عز وجل ، وهو سعة الرزق عليهم

ورضاه تعالى عنهم ! وهو أكبر من الأولى ، كما قال جل وعلا^(١) (وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ

أَكْبَرُ) انتهى .

« سِيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ » مبتدأ وخبر ، أي علامتهم كائنة فيها . وقوله تعالى « مِنْ

أَثَرِ السُّجُودِ » بيان للسما ، كأنه قيل : سيماهم التي هي أثر السجود . أو حال من المستكن

في (وجوههم) .

قال الشهاب : وهي على ما قبله خبر مبتدأ تقديره : هي من أثر السجود . انتهى .

وهل الوجوه مجاز عن الذوات ، أو حقيقة ؟ في معناها تأويلان للسلف ، فعن ابن عباس

(سِيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ) يعني السمات الحسن . وقال مجاهد وغير واحد ، يعني الخشوع

والتواضع . وقال منصور لمجاهد : ما كنت أراه إلا هذا الأثر في الوجه ، فقال مجاهد ، ربما كان

بين عيني من هو أقسى قلباً من فرعون . وقال بعض السلف : من كثرت صلواته بالليل ، حسن وجهه

بالنهار . وقد رفعه ابن ماجه . والصحيح أنه موقوف . وقال بعضهم : إن للحسنة لنوراً في القلب ،

(١) [٩ / التوبة / ٧٢] .

وضياء في الوجه ، وسعة في الرزق ، ومحبة في قلوب الناس . وقال أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه : ما أسرّ أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه ، وقلبات لسانه . وروى الطبراني مرفوعاً : ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله تعالى رداءها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر - وإسناده واهٍ ، لأن فيه العزيمى وهو متروك - .

وروى الإمام أحمد^(١) عن أبي سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ قال : لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ، ليس لها باب ولا كوة ، لخرج عمله للناس كائناً ما كان .

وأخرج أيضاً^(٢) عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : إن الهدى الصالح ، والسمت الصالح والاقتصاد ، جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة . ورواه أبو داود أيضاً .

والتأويل الثانى فى الآية ، أن ذلك آثار ترى فى الوجه من ترى الأرض ، أو ندى الطهور . روى ذلك عن ابن جبير وعكرمة . وقد كان ذلك فى العهد النبوى ، حيث لافراش للمسجد إلا ترابه وحصباؤه .

وكل من المعنيين من (سيمَاهُمْ) رضى الله عنهم وأرضاهم .
وقوله تعالى « ذَلِكَ » أى الوصف « مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ » أى صفتهم العجيبة فيها « وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْهُو » أى فراخه أو سنبله أو نباته « فَأَزْرَهُو » أى قواه « فَأَسْتَغْلَظَ » أى فغلظ الزرع واشتد . فالسين للمبالغة فى الغلظ ، أو صار من الدقة إلى الغلظ « فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ » أى استقام على قصبه . و (السوق) جمع ساق « يُعْجِبُ الزُّرْعَ » أى يعجب هذا الزرع الذى استغلظ فاستوى على سوقه فى تمامه ، وحسن نباته ، وبلوغه وانتهائه ، الذين زرعه . وقوله تعالى « لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ » تلميح لما دل عليه تشبيههم بالزرع من نمائهم وقوتهم ، كأنه قيل : إنما قواهم وكثرهم ليغيبهم الكفار .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٨ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .
(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٩٦ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٢٦٩٨ (طبعة المعارف) .

لطائف :

الأولى : يجوز في قوله تعالى (وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ) وجهان : أحدهما - أنه مبتدأ ، وخبره (كَزَرْعٍ) فيوقف على قوله (فِي التَّوْرَةِ) فهما مثلان ، وإليه ذهب ابن عباس .

والثاني - أنه معطوف على (مَثَلُهُمْ) الأول ، فيكون مثلاً واحداً في الكتابين ، ويوقف حينئذ على (فِي الْإِنجِيلِ) ، وإليه نحا مجاهد والفرّاء ، ويكون قوله (كَزَرْعٍ) على هذا فيه أوجه :

أحدها - أنه خبر مبتدأ مضمّر . أى مثلهم كزرع ، فسر به المثل المذكور في الإنجيل .

الثاني - أنه حال من الضمير في (مَثَلُهُمْ) أى مماثلين زرعاً هذه صفة .

الثالث - أنه نعت مصدر محذوف ، أى تمثيلاً كزرع - ذكره أبو البقاء .

قال الزخشرى : ويجوز أن يكون (ذَلِكَ) إشارة مبهمّة أوضحت بقوله (كَزَرْعٍ)

كقوله ^(١) (وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَوَالَاءِ) - أفاده السمين .

الثانية - قال السمين : الضمير المستتر في (فَأَزْرَهُو) للزرع ، والبارز للشطء . وعكس

النسفي ، فجعل المستتر للشط ، والبارز للزرع . أى أقوى الشطء بكثافة الزرع وكثافته

كثرة فروعه وأوراقه . قال الجبل : وما صنعه النسفي أنسب ، فإن المادة أن الأصل يتقوى

بفروعه ، فهي تعينه وتقويه .

الثالثة - قال السمين : (يُجِيبُ الزُّرْعَ) حال . أى حال كونه معجباً ، وهنا تمّ المثل .

الرابعة - قال الزخشرى : هذا مثل ضربه الله لبدء أمر الإسلام ، وترقيته في الزيادة ،

إلى أن قوى واستحكم ، لأن النبي ﷺ قام وحده ، ثم قواه الله بن آمن معه ، كما يقوى

الطاقة الأولى من الزرع ، ما يحتف بها مما يتولد منها حتى يعجب الزراع .

(١) [١٥ / الحجر / ٦٦] .

وهذا ما قاله البغويّ من أن (الزرع) محمد ، و (الشطاء) أصحابه والمؤمنون ، فجعلنا التمثيل للنبي ﷺ وأُمَّته .

وأما القاضي فجعله مثلاً للصحابة فقط . وعبارته : وهو مثل ضربه الله تعالى للصحابة ، قلّوا في بدء الإسلام ، ثم كثروا واستحكّموا ، فترقّى أمرهم ، بحيث أعجب الناس . قال الشهاب : ولكل وجهة .

الخامسة - قال ابن كثير : من هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمة الله عليه ، في رواية عنه ، تكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة رضي الله عنهم . قال : لأنهم يبغضونهم ، ومن غاظ الصحابة ، فهو كافر لهذه الآية . ووافقه طائفة من العلماء على ذلك - انتهى كلام ابن كثير . ولا يخفّاك أن هذا خلاف ما اتفق عليه المحققون من أهل السنة والجماعة من أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة ، كما بسط في كتب العقائد ، وأوضحه النوويّ في شرح (مقدمة مسلم) ، وقبله الإمام الغزاليّ في كتابه (فيصل التفرقة) . وقد كان من جملة البلاء في القرون الوسطى التسرع من الفقهاء بالتكفير والزندقة . وكم أريقت دماء في سبيل التعصب لذلك ، كما يمر كثير منه بقارئ التاريخ . على أن كلمة الأصوليين اتفقت على أن المجتهد كيفما كان ، مأجور غير مأزور ، ناهيك بمسألة عدالتهم المتعددة أقوالها ، حتى في أصغر كتاب في الأصول كمثل (جمع الجوامع) . نعم ، إن التطرف والغلوّ في المباحث ليس من شأن الحكماء المصنفين . وإذا اشتد البياض صار برّصاً .

«وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا» أي صدقوا الله ورسوله «وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً» أي عفواً عما مضى من ذنوبهم ، وسيء أعمالهم ، بحسنها . «وَأَجْرًا عَظِيمًا» أي ثواباً جزيلاً ، وهو الجنة .